الكلامُ الذي لم أقلهُ

نمر سعدي

(1)

لقلبيَ عيناينِ نضّاحتانُ
وسمِعُ رهيفٌ لرفّةِ مُخملكِ الرطبِ في الليلِ
حينَ تجيئُ مکتظَةً باللهيبِ وبالتلجِ
مشغولةً بالمحارِ الحليبيِّ
مدهونةً بالشذى مثلَ نرجسةِ الشعرِ
مسكونةً بالبكاءِ المُشعِّ
على ما استقالَ من الشمعِ منكِ
وعابقةً بندى الأغنياتِ العصيّةِ...
حافلةً بالخرافةِ..... /
قلبي بعينينِ نضّاحتينِ
يرى فيكِ كُلَّ الذي لا تراه العيونُ
ويلمسُ همسَ الخطى
وانتباهَ الأصابعِ فوقَ الغصونِ
ورفّةَ مخملكِ الرطبِ في الليلِ
حينَ تجيئُ لاذعةً كالدموعِ
وشفافةً كبكاءِ الرضيعِ
وصافيةً كالينابيعِ
قاتلةً كأكفِّ الشتاءِ

وناعمةً كحريرِ الصقيعِ

تجيينَ عبرَ المساماتِ

عبرَ الخطى الوالهاتِ

وعبرَ انتظارِ القصيدةِ

عبرَ انهمارِ الكلامِ الجميلِ

المخاتلِ كالصَّ أنثى الربيعِ

تجيينَ.....

تندلعينَ بقلبي كسربِ السنونو

كحقلٍ من الجمرِ

تستبتينَ الخرافةَ والمجدَ والنهرَ والحلمَ

تنكسرينَ على صخرةِ عاشقةِ

تجيينَ مواراةً بالأناشيدِ

منذورةً للطفولةِ

ملغومةً بالعواصفِ والقُبلِ الحارقةِ

ومزدانةً كالطبيعةِ في عرسها

كإناثِ الطيورِ التي لم تعدْ

من سفارٍ إلى الحبِّ والهاويةِ

أنتِ كالأبجديةِ في قاعِ قلبي

وأيقونةً للمحبةِ ملءَ دمي ذاويةِ

(2)

كلّما اندلعتُ في عيوني الرياحينُ

واحتشدتُ في عروقي الزلازلُ
يَمَّمْتُ قَبْلَةَ رَائِحَةِ الْمَسْكِ فِي صَدْرِكَ الْمَرْمَرِيِّ
وَلَوَّحْتُ بِالْبَيْرِقِ الْمُتَمَرِّقِ
تَحْتَ الشِّفَاهِ الَّتِي عَمَّدْتَنِي
بِمَاءِ الْحَنِينِ وَنَارِ الطَّهَارَةِ
ذَاتَ نَهَارٍ عَصِيٍّ عَلَى مَا تَقُولِينَ
عَنْ وَجَعِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي لَمْ تُحَالَفِ رِوَاكِ
وَرَاءَ الْمَعَانِي الْحَبِيسَةِ مِثْلَ الْأَحَاسِيْسِ...
أَوْ شَهَقَاتِ الْفَرَحِ
تَجِيئِينَ أَوْ تَذَهَبِينَ كَقَوْسِ فُرْخِ
وَهَا أَنَّنِي لَا أُلْمَمُ إِلَّا بِقَايَاكَ
مِثْلَ الذَّنَابِ الْوَدِيعَةِ
أَوْ أَنْتَشِي بِالرَّمَادِ الْحَبِيبِ.. وَلِذَعِ الْقَدْحِ
أَلْفُ نَجْمٍ عَلَى طَرْفِ الْخَصْرِ مِنْكَ يُصِيحُونَ بِي
وَأَنَا بِسَمَةٌ لَا تَغَادِرُ عَيْنِيكَ حِينَ تَنَامِينَ
أَوْ طَيْفُ أَمْسَاكَ أَوْ ظَلُّهُ
أَوْ مَرَايَا اشْتِهَائِكَ
أَوْ حَقْلُ رَائِحَةٍ مِنْ سَرَابِ
لِرَغْوَةِ شَهْوَةِ قَلْبِكَ خَلْفَ الْفَضَاءِ انْبِطَحَ
وَأَنَا دَمْعَةٌ لَا تَغَادِرُ كَفْيِكَ
حَتَّى تُحِيلَ دَمِي نَهْرَ نَيْلُوفِرٍ
فِي مَهَبِّ الرِّيَّاحِ

وشوقي ضباباً لمعنى العدم
كلُّ هذا الكلامِ الذي لم أقلُّه
انتصاراً لما فيك من رغبةٍ أو ندمٍ

(3)

لقلبي عيانٍ نضّاحتانُ
وأجراسُ وردٍ
وأنهارُ شهدٍ
وتسبيحةٌ للصباحِ الحزينِ
وأمطارُ دمعٍ لشوقِ الزمانِ
إلى ما تقولينَ يوماً بحسِّ الخريفِ المروِّضِ
من غيرِ أن تنبسينَ ببنتِ شفاهِ...
وتشتعلينَ بماءِ الحنانِ
لقلبي عيانٍ نضّاحتانُ

(4)

كانَ حُزنكِ أكبرَ من فسحةِ الصبرِ ملءَ يديّ
وأوسعَ من قُبلةِ كحوافِ الهلالِ المُقالِ من الجنّتينِ
وأضيقَ من بسمَةِ عابرةٍ
على مشهدِ الأرضِ والآخرةِ
كانَ حُزنكِ يأخذني كالغريبِ إلى اللا مكانِ

(5)

كُلُّ هذا الكلامِ الذي يتمايلُ
مثلَ النسائمِ في غابِ روعي
ويُرجئني كالقصيدَةِ من دونِ قصدٍ
إلى لحظةٍ غابرةٍ
كُلُّ هذا الكلامِ يُراودني عن وفائي
ويخلطُ كلَّ لعابِ الذنابِ
وسمِّ الأفاعي..... بمائي

(6)

لماذا تريدِين نقضَ الغيومِ التي
نسجتها أصابعُ بنلوبِ يوماً ثياباً لقلبي....
ونقضَ خيوطِ القمرِ..؟
أنا لا أحبُّك أكثرَ من أيِّ شيءٍ
وليسَ أقلُّ من الأُخوانِ الغريبِ بفصلِ الشتاءِ
فرُدِّي إليَّ نقاوةَ فجري
وبعضَ براءةِ شعري
وعمري الذي نَقَطَتْهُ دموعُ السفرِ
ولا تقتلي بلبلاً في سحرِ
ولا تصبغي فلَّةً بقتامِ
.....
أنا لن أسألكَ لو مرَّةً واحدةً

ولو كَانَ سَائِلَ بَعْضِ انْفَعَالِي

وَبَعْضُ جُنُونِي فَيْكَ.....

فَلَا تَصْمَتِي أَوْ تُجِيبِي

وَلَكِنِ إِلَى الْحَبِّ تَوْبِي

وَتَوْبِي إِلَى نَجْمَتِي الشَّارِدَةِ

وَرَاءَ سَمَاءِ عَيُونِي

وَهَاوِيَةٍ فِي أَعَالِي حَنِينِي

(7)

شُرُودُكَ بِحَرِّ كَثِيبٍ كَثِيبٍ.. وَنَارُ طُقُوسِيَّةٍ كَالنَّوَارِسِ

رَاحَتُ ثُرْفَرُفٍ فَوْقَ جَبِينِي

تُخَذُّ مَجْدِي الْقَتِيلَ الْجَمِيلَ صَبَاهُ

تَلدُّغُ قَلْبِي بِطَعْمِ الْجَلِيدِ الَّذِي نَزَّ مِنْ بَسَمَاتِ الشَّفَاةِ

وَأَنْتِ أَطْهَرُ مِنْ نَسْمَةٍ فِي الضَّحَى الْمُسْتَعَادِ

وَأَنْصَعُ مِنْ قَبْلَةٍ لَا تَحْطُّ بِأَيِّ بِلَادِ

وَأَشْرَسُ مِنْ ذَنْبَةٍ فِي الْفَلَاةِ

(8)

تَسْتَحْمُ دِمَاؤُكَ بِالْأَغْنِيَاتِ

كَمَا بِالشَّمُوسِ الْأَلْيَفَةِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ

وَيُزْهِرُ وَجْهَكَ بِالْعَنْفَوَانِ

كَأَنَّكَ زَنْبَقَةٌ عَارِيَةٌ

وحوريةٌ لا تفارقتني منذ بدء الزمان
على سهوة الوجد والحلم المستباح
فأزرعُ عيني ماءً بحارٍ
وحقلَ نجومٍ وراء الصباح
وأفهمُ فيكِ غموضَ الحياة
والوضوحَ الذي يتقطرُ من ساعديكِ
كماءِ الوضوءِ على شهقاتي
أنتِ سرٌّ لأفعى الأنوثةِ ينسابُ في قلبِ فلةٍ
وأنَّ عذابي المتوجَّحِ فيكِ قصيدةٌ منفى
وسيفٌ هيامي الذي هو أهيبُ
من غايةِ النارِ في ملكوتِ الظلامِ
به سوفُ أقتلُ يوماً بأُمِّ يميني
وأصبحُ بعضَ الهديلِ القليلِ
وظلاً من الياسمينِ الحزينِ

(9)

الفراعُ يحفُّ دمي بالعذاباتِ
يرفعُ عينيَّ فوقَ الصليبِ المتوجِّحِ بالشوكِ
يحضنني في الأعالي
ويكلمني بالمعاني
التي نقصتُ من كياني
الفراعُ يُمسدُّ أظفارهُ

بحرير الكلام الذي لم أقله أنا.....
وأنا لم أكن غير ظلّ الكلام المعلق بين السماء
وما بين أرض الخسارة.....
ما بين عينيّ أقصى جحيم سدوم
وما بين حلم يُرفرفُ أعلى سماء اليمام الذبيح
إلى لا انتهاء
ليتني كنتُ ظلاً لأنثى الخزام.

كانون أول 2009